(١١)
الشيطانة الغجرية تعشق

صيف سنة ٢٠١٣

تركتْ الغجرية وعد شقتها بمنشية ناصر إلى شقة كبيرة فاخرة بالرحاب ، وكان هذا قرارا صارما اتخذته ونفذته في النهاية بعدما بلغتْ مبلغا لم تستطع بعده أنْ تتحمل زوجها الغجري سالم السعدي .. لم تعد تبالي به أو تبالي بغيره مِن أهله أو أهلها ، فطالبته صراحة بالطلاق فرفض رفضا قاطعا ، فعرضتْ عليه مالا مقابل ذلك فعاند أكثر.

تركتْ شقتها وهي لا تزال زوجته ، وانتقلتْ إلى الرحاب دون أنْ تخبر أحدا بمسكنها الجديد ، وغيرتْ أرقام هاتفها وهاتفي ياسين وهايدي .. حاول سالم كثيرا أن يصل إلى أرقام الهواتف الجديدة حتى وصل أخيرا ، فاتصل بها ، فطالبته بعدم الاتصال طالما يعاند معها ، فقال لها الزوج المخدوع :

- أريد أن أرى أولادي
- إن طلقتني سأجعلك تراهما
- لن أطلقكِ أبدا يا وعد .. سأجعلكِ مُعلَّقة هكذا كالطيور المحنطة
- ولِمَ هذا الشر؟
- لأن الأموال غيرتكِ وصرتِ تتكبرين عليَّ .. أنتِ إنسانة خسيسة
- الزم حدودك يا سالم
- أريد أنْ أرى أولادي يا وعد
- طلقني أولا

- لن أطلقكِ
- إذن لن تراهم أبدا

وكانت حياة الرحاب مختلفة تماما عن الحياة في منشية ناصر ، الفرق بين الحياتين كالفرق بين الجنة والنار ، والصحة والمرض ، والأمن والذعر ، وكان ياسين رغم دراسته في مدارس اللغات قد عاش حياة هؤلاء الفقراء والمتسولين هناك .. أصحابه مِن هؤلاء إما أنْ يكون بلطجيا أو لصا أو متسولا أو محروما يائسا بائسا ، وكانت أخته هايدي لا تختلف عنه في ذلك إلا قليلا ، فلما انتقلا إلى الرحاب لقيا صعوبة في البداية قبل أن ينخرطا في المجتمع الراقى الجديد .. فى الرحاب لا تجد إلا حياة منظمة نظيفة منتظمة راقية في الظاهر غامضة الباطن ، وكلُّ شيء بحساب ، حتى إنَّ كلَّ كلمةٍ مِن ساكنيها مقصودةٌ دون ثرثرة .

وياسين الذي كان لسنواتٍ كثيرةٍ يعمل في التسول أحيانا وفي السرقة والنصب حينا آخر ، ها هو قد صار شابا في السابعة عشرة مِن عمره ، يحمل على أحد كتفيه حقيبته نازلا مِن شقتهم الجميلة ليركب سيارة الغجرية الجيب الجديدة مع أخته هايدي ، وما هي إلا دقائق معدودة حتى وقفتْ وعد بسيارتها أمام نادي الرحاب لينزل ياسين وهايدي ليقضيا وقتا جميلا طويلا في النادي ، بينما جلستْ مدام وعد مع سيداتٍ تعرفتْ عليهن ، وانخرطن جميعا يتحدثن في أمورٍ تفهم وعد بعضها بسهولة ، لكنها تعجز عن أن تجاريهن في الكثير ، فتهرب للصمت الطويل الآمن .

وكانت وعد لا تزال رغم انتقالها إلى تلك الحياة الجديدة في كل شيء تداوم على الذهاب بين وقتٍ وآخر إلى إشارة التسول في تقاطع شارعي الطيران ومصطفى النحاس ، والغريب أنها صارت تبدل ملابسها وتتخفَّى لتعود للتسول بنفسها بعدما كانت قد اقتصرتْ على مجرد الإشراف .. دفعها إلى ذلك أنه لم يتبقَ معها مِن المال

إلا القليل ، إنْ اعتمدت عليه فقط ستعود للفقر القديم ، فلم يكن لها مِن عملٍ تحترفه وتتقنه كثيرا غير التسول .

إنَّ معظم رصيدها في البنك قد أنفقته على شراء شقتها الكبيرة في الرحاب وتغيير سيارتها إلى سيارة أغلى ثمنا ، وحياتها الجديدة مع الغلاء الفاحش صارا يكلفانها بذل الكثير مِن الأموال في كل يوم ، وصار ياسين وهايدي يحتاجان لأموالٍ كثيرة مِن أجل دراستهما الأجنبية ، لقد أدخلتْ الاثنين نفس المدرسة التي بها بدر وأخته مِن أحلام لشيء في نفسها الطامحة الشريرة .

ووعد بالطبع لم تنسَ ابنها بدر يوما واحدا ، فهي منذ أنْ غرسته في التربة الثرية تنتظر هذا اليوم الذي يكبر فيه لتعيده إليها بكل ثرائه ، أو تذهب له بكل طموحها ومطامعها الشريرة .

كانت منذ اليوم الذي بدلته مع ياسين تراقبه مِن بعيد .. كانت تنتظر الساعات أمام فيلا الزمالك الفخمة لتراه بينما يركب السيارة متوجها إلى مدرسته ، وتراه بينما يعود منها داخلا إلى الفيلا ، حتى إنها كانت تتبع مسعود سائق السيارة حتى المدرسة والنادي .. فعلتْ ذلك لتعرف كل شيء عنه أولا بأول .

هي بالطبع تعرف أنَّ أباه معتصم شرف الدين وزوجته أحلام لا يزالان على قيد الحياة ، وتعرف أنَّ أحلام قد أنجبتْ له أختا اسمها يارا ، وقد أغاظها ذلك وأغضبها كثيرا ، فهي تريد الثروة كلها لابنها بدر.

وتعرف أنَّ مدحت الأخ الأكبر لمعتصم ، ونرمين أختهما الوحيدة يترددان دائما على الفيلا .. هما أيضا لديهما حُلْمُ الثراء الأكبر عن طريق ساكني هذه الفيلا المرصودة مِن الأعين الحاقدة .

ولقد تعمدتْ الغجرية وعد أنْ تعلِّم ياسين وهايدي تعليما عاليا غاليا كما يتعلم بدر ويارا ، وقد كلَّفها ذلك المال الكثير حتى أوشكتْ على مشارف الإفلاس ، فهي تخطط منذ سنين لأنْ يتقابلا لاحقا في الجامعة ويتعارفا بأي شكل أو طريق .. تريد أنْ تقترب كثيرا مِن حديقة حلمها حُلْم الثراء ، وهي مستعدةٌ لأن تجتث كل جذوع الشجر الذي قد ينبت فيعوق طريق مخططاتها نحو جني الثمار ، لكنها حتى هذا الحين الذي اقترب هي مضطرة لأنْ تنزل بنفسها للتسول لجمع بعض النقود بعدما كانت قد انقطعتْ فترة طويلة عنه معتمدة على فوائد أموالها وعلى ما تعطيه لها نوال .

إنَّ الجميع يقدرون ذكاء وعزم اليهود أو الغرب عندما يتوحَّدون حول هدفٍ واحد ، يموتُ الواحد منهم ويأتى الآخر بعده ليُكْمِل نفس الطريق للوصول لنفس الهدف المحدد على حين غفلةٍ وتفرقٍ مِن أعدائهم ، وإنَّ لديهم إصرارا دائما موحدا للوصول لكل ما خططوا له ، ومثلهم تلك الغجرية وعد بكل شرّها ومخططاتها الإجرامية ، فكرها فكرُ هؤلاء ، وعزمها عزمٌ مِن حديد ، والنجاحُ يكون دائما حليفَ الأذكياء أصحاب العزم والعمل والثبات على المبدأ وإنْ كان الهدف غير سوي ، والفشلُ حليفُ الأغبياء الكسالى الذين يفقدون دوما كلَّ هدفٍ في الحياة ما لم يستيقظوا ويعملوا عمل الناجحين .

ها هي وعد تعود إلى أرض التسول بأنوثةِ ما فوق الثلاثين ، وجمالٍ فاق جمالها القديم ، وجمالُ المرأة يزيد مع تعاقب السنين مثل غرس الشجرة المثمرة ، كلما طال عليها العهد حلا ثمرها طعما ومذاقا .

صار جمالُ وعد يجذب كل عين ، ولا يصدق كثيرون أنَّ صاحبة هذا الجمال هي متسولةٌ في الحقيقة ، فثياب التسول لم تستطع أنْ تغيِّر تلك الطفرة التي زادت في جمالها لسببين : أولهما النضج الذي يزيد الأنثى - أية أنثى - أنوثة ، وثانيهما جوار حياة الأغنياء في الرحاب .

في أول يومٍ لها بعد العودة أقبل عليها المتسولون والمتسولات لتحيتها والترحيب بها .. قالت نوال :

- نوَّرتِ مكانكِ يا وعد
- النور نورك يا نوال

ونظرتْ لها نوال وقالت مأخوذة بطغيان جمالها وأنوثتها :

- آه لو كنتُ رجلا

ضحكتْ وعد قائلة :

- امشي يا شاذة
- يخرب بيت جمالك يا وعد
- أي جمال تتحدثين عنه؟!! .. أنا في الآخر متسولة
- مثلك يجب أنْ تسكن القصور
- الله أعلم يا نوال .. ربما يحدث قريبا
- أنا متأكدة أنه سيحدث

قالتها نوال وضحكتْ ضحكة خليعة مسموعة ثم التفتتْ لعملها ، وراحت وعد تمارس مهنتها وتنتقل بين السيارات وتردد:

- (منديل يا بيه .. منديل يا هانم .....)

وانتظمتْ حياتها في ذلك النمط الممل الذي صارت تشعر به جديدا عليها بسبب شخصيتها الجديدة ومسكنها الراقي ، وقد كرهتْ أنْ تمضي بها الحياة هكذا طويلا رغم أنَّ المال قد بدأ يعاود جريانه في كل يوم إلى نهرها ، وإنها في الأساس صبورة ، وتحب أنْ تتقن كل خططها ، ومع ذلك فقد بدأتْ تستعجل الوصول إلى حلمها حُلْم الثراء الفاحش الذي لا عودة منه لفقر أبدا .

ومضتْ أيامها على ذلك حتى كانت تجلس يوما بالرصيف أسفل شجرة تحتسي كوبا مِن الشاي ، فسمعتْ ضجيجا على الطرف الآخر مِن الطريق مِن ناحية مبنى حي مدينة نصر ، حيث كان كثيرٌ مِن الناس يحيطون برجلٍ زري الهيئة ، شاحبِ اللون ، ثيابه متسخة وممزقة ، حافي القدمين ، بوجهه آثار جروح طفيفة لم يَطُلْ عليها الوقت ، وكان يتلقى الضربات وقذائف الحجارة وكلمات السخرية مِن المحيطين دون أنْ يرد على أحدٍ إلا بابتسامة .. كان فقط يريد أنْ يجلس في ظلِّ شجرة ويبكي .

سألتْ وعد عامل الشاي عن سبب الضجيج ، فنهض مِن مكانه واقفا وأرسل عينيه بعيدا ثم قال لها :

- لا شيء يا وعد .. فقط الناس تجري خلف مجنون

ضحكتْ وعد ثم ارتشفتْ بعضا مِن الشاي ، وأخرجتْ تليفونا محمولا قديما ، وراحت تتصل بهايدي لتطمئن عليها ، فهي بالطبع ابنتها بنت بطنها غير ياسين الغريب ، لذا فهي لا تنقطع عن أنْ تطمئن عليها في كل وقت .. إنها تحبها حبا جَمًّا ، فهايدي تشبهها كثيرا ، وكلما كبرتْ ولفَّ خرَّاطُ النساءِ جسدها اقتربتْ منها أكثر لتكون وعد الثانية بكل سحرها وأنوثتها الطاغية .

وبنفس تلك اللحظات لم يكف الناس عن مطاردة المجنون ، وكلما ابتعد عنهم اقتربوا منه حتى عبر الشارع إلى الجانب الذي تجلس فيه وعد ، وصار قريبا جدا مِن مكان جلوسها ، ورغم ذلك لم تهتم حتى جاءت لها نوال مسرعة تقول لها في رفقٍ وتأثر:

- والله حرام

فنظرتْ لها وعد ضاحكة وقالت :

- ماذا بكِ يا نوال؟
- إنه رجل مسكين .. يا ناس ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء
- آه منك يا نوال يا أم قلب طيب
- ماذا فعل لهم المجنون ليقذفوه بالطوب؟
- هيا يا نوال عودي إلى عملك .. لا دخل لنا بالمجانين

وظلتْ نوال واقفة ، واقتربتْ مِن وعد أكثر تستعطفها أنْ تقف وتمنع الناس والمتسولين مِن ملاحقته وضربه ، فإنَّ لها سُلطةً وكلمةً بالمكان ، فابتسمتْ وعد وهزَّتْ رأسها واقفة وهي تقول لها :

- ما رأيكِ أنْ تطلبي الطلاق مِن زوجك لتزوجك هذا المجنون؟
- والله أتمنى ذلك .. إنه على حالته تلك أحلى مِن المتعوس زوجي

وضحكتْ الغجرية وعد ، وقالت وهي تغمز نوال أسفل صدرها قائلة :

- آه منك يا نوال آه

واتجهتْ وعد مِن مكانها ناحية المجنون الذي كان قد جلس جانبا ، ثم وارى وجهه بين كفيه وأخفض رأسه وانخرط في البكاء وهي تنادى فيمن حوله أنْ يتركوه

حتى اقتربتْ منه قائلة له :

- تعالَ معي ولا تخف .. تعالَ أسقيك شاي

ورفع المجنون رأسه لها صامتا والدموع تسير على لحيته الطويلة المبعثرة .. لكن مَن هذا؟! .. يا إلهي! .. لقد ظلَّتْ الغجرية وعد لفترة تنظر له فقط دون أنْ تتكلم .. إنها تعرف هذا الوجه .. تعرفه بدون ملامح الشحوب والقهر والحزن التي تعلوه ، وبدون تلك اللحية وكثرة الجروح والندوب .. إنه هو.

عندما تَعشق الخير ، وتُفْني نفسَك مِن أجل أنْ ترى البسمة على الشفاه ، ثم يأتي أقرب الناس إليك ، ولا يكون له هدفٌ غير أنْ يقطع يدك الممتدة لغيره بالإحسان وإن كانت في الأصل ممتدة له امتدادا لا ينقطع ، فهذا في رأيي مِن علامات النهاية بآخر الزمان .. يفعل القريب منكَ هذا لأنكَ لا تقصرها عليه ، فإنْ فشل معكَ في الجولة الأولى انتقل إلى جولات أشد حقدا ومكرا ، ولا يكون أمامك رغم كل صدمة فيه ومنه إلا أنْ تقاوم وتقاوم لتبقى واقفا تُقَرِّب الخير لمن يحتاج ، وأنتَ تعرف مع ذلك أنَّ منتهى الحسرة والألم أنْ تشعر أنكَ إنْ سقطتَ سقط كل شيء ، وإنْ فقدتَ قوتكَ خارت كل القوى ، وإنْ استسلمتَ في النهاية وأنتَ القوي أصابكَ الجنون كبديل .. تلك نهاية الدكتور مالك الأمير في بيته .. نعم هو هذا ، مالك المجنون .

وعند العودة إلى الوراء سنوات نذكر أنَّ الخادمة الغجرية وعد كانت قد أبلغته أنَّ زوجته حنان قد طلبتْ منها الإيقاع به في الجنس معها لهدف في عقل الزوجة الشيطانة يخدم خطتها لقهره وإضعاف قوته ، وأخبرته وعد حينها بمكر الزوجة ، وذلك لأنها عندما وازنت بين أمورها وجدتها ترجح أكثر في كفة الزوج ، وبحيلةٍ منها أوقع الزوج بزوجته الماكرة حنان ، لكن حنان أخبرتْ مالك بعلاقة

الجنس الحرام التي تمَّتْ بين وعد وأخيه إياد ، وأخطأ الدكتور مالك خطأ حياته ، فأبقى على الشيطانة حنان في بيته ، وطرد الشيطانة وعد .

وها هو الدكتور مالك يُطْرَد مِن بيته على يد حنان وإياد وبقية الأسرة والأهل ، حتى إنَّ فلذتي كبده بلال وحبيبة قد وقفا في صفِّ أمهما الغادرة ، وكان هذا أكثر ما قهره وأطار صوابه ، كيف لم يحرك حبيباه ساكنا للاحتفاظ به وهما تربية يده ودنياه بكل ما فيها ؟! ، لكن حقا إنَّ حبَّ المال والرغبة في الانحلال دائما يفسدان قلوب الضعفاء ، لذا فلا عجب أن اخترقتْ سهام الغدر والخذلان طيبة الرجل وعقله وقلبه وثقته بكل البشر ، فخرج للشوارع مجنونا يتقلب بين أمواجها الهادرة حتى وصل جاثيا خائر القوى مسكينا أمام الشيطانة وعد .

- دكتور مالك!!

هذا ما صرخت به الغجرية في ذهول فور أنْ عرفته ، لكنه ظلَّ لفترة ساكنا ينظر لها دون أنْ ينطق فأعادت وعد :

- دكتور مالك .. أنتَ دكتور مالك .. لا يمكن أن أنساك

لم يرد المجنون وظلَّتْ تطلب منه الكلام وهو لا يتكلم فقالت له :

- لا أستطيع أنْ أصدق عيني .. تحدث لأسمع صوتك .. أنا أحفظ صوتك .

ولم يتحدث ، فراحت تقول :

- أظن أنَّ زوجتك حنان هي سبب ما أنتَ فيه الآن

فنظر لها ، وأشار برأسه أنها الحقيقة ، فقالت بغضبٍ وتأثر :

- كنتُ أعرف .. الله يحرقها

وسألته عن إخوته فلم يرد ، فسألته عن ابنه بلال وابنته حبيبة ، فنظر لها وبكى

فقالت له في رفقٍ :

- لا عليك اهدأ .. مؤكد أنكَ جائع

نظر لها ولم يتكلم ، فوقفتْ ونادت نوال ، فأسرعتْ نوال إليها ، فأعطتها نقودا ، وطلبتْ منها أنْ تُسْرِع إلى مطعم أرابياتا قبل آخر الشارع بقليل وتأتي بأفضل طعام .

أكل مالك وشرب ، ثم نظر دون كلام بنظراتِ الشكر لوعد التي جلستْ بجانبه تراقب كلَّ حركاته وتعبيرات وجهه وهي غائبة عمن حولها وعما حولها .

تذكرتْ عندما كان يعود مِن عمله مشرق الوجه رغم التعب فيضع حقيبته بشوشا في وجه كل مَن يصادفه ، ثم يفتح ذراعيه بكل عطف ورفق ضاحكا لطفليه ، فيقبلان عليه لثما وتقبيلا ، وتذكرتْ إنفاقه على الفقراء ، كما تذكرتْ زوجته حنان التي كانت تقف أمامه دون حراكٍ خوفا منه رغم ميولها الشيطانية ، فلقد كان الآمر الناهي في ذاك البيت الغني الكبير .. هذا ما حدثتْ به وعد نفسها وهي تتساءل : كيف استطاع الشياطين إيصاله إلى هذه الحال؟ .. ونظرتْ إلى الجروح في وجهه فقالت له :

- سآخذك معي لأعالج جروحك

أشار لها رافضا ، فقالت تصيح فيه :

- سآخذك رغما عنكَ

وجذبته مِن يده ، ثم اتجهتْ به ناحية سيارتها وأركبته بصعوبة ، وفي الطريق راحت تتحدث له وهو لا يفعل شيئا غير أنْ يهزَّ رأسه لها حتى صاحت فيه أنْ ينطق ليجيب على سؤالها :

- تحدث وقل هل تعرفني؟ .. هل تتذكرني؟

التفتَ لها ونطق أخيرا :

- أنتِ وعد

فخفق قلبها بسماع اسمها يجري على لسانه حتى إنها رفعتْ يده إلى فمها بحركة لا إرادية وقبلتها ، وإنها بالفعل لا تتعامل معه على أنه مالك المجنون ، بل تتعامل على أنه الدكتور مالك الأمير ، ذلك الذى تمنَّته كثيرا منذ سنوات ولم تخجلْ عن أنْ تذكر ذلك لزوجته حنان .

أطلقتْ زغرودة عالية مِن السيارة دون اهتمام بالناس ، فابتسم لها ، فابتسمتْ وقالت :

- أنا سعيدة أنكَ تذكرتني

قال لها بصوتٍ هادىء :

- مثلكِ لا يُنْسَى يا وعد

ابتسمتْ ابتسامة صافية مِن أعماق قلبها وقالت :

- ما أجمل كلامك! .. والله أنا لا أصدق أنكَ مجنون

قال لها مبتسما :

- وأنا لا أصدق أنكِ عاقلة

فنظرتْ له باستغرابٍ وسألته :

- لِمَ تقول ذلك؟!

- إننا نعيش في دنيا معقدة وعجيبة .. الأبيض أسود والأسود أبيض .. ضباب وضباب

- دكتور .. أنا لا أفهم كلامك الكبير هذا .. خاطبني على قدر عقلي

فضحك مالك وقال :

- باختصار ليس هناك حقيقة ثابتة إلا الله وما أخبرنا عنه الله

- والله معكَ حق يا دكتور .. بدأتُ أفهم

ووصلا إلى الرحاب ، وصعدت به إلى شقتها حيث فوجىء ياسين وهايدي بها تدخل عليهما شقتهم وفي يدها رجلٌ يبدو مِن هيئته وملابسه أنه مجنون .. نظر ياسين بعينين بارقتين ولم ينطق ، وصاحت هايدي :

- ماما .. مَن هذا؟!

قالت لها وهي تتجه به ناحية الحمام :

- لا تسألي

وفي اليوم التالي لم تذهب للتسول ، إنما ذهبتْ به إلى نادي الرحاب .. كان يمشي بجوارها بعد أنْ حلق لحيته وألبسته أحسن الثياب كأنهما زوجان خرجا للتريض .

كانت سعيدة به جدا وفخورة به جدا .. تشعر بالحماية في كنفه وهي المرأة القوية الشريرة التي عاشت كل حياتها الزوجية السابقة الأنثى والرجل ، بل لقد تأبطتْ يده وتشبثتْ بها ، وتعمدتْ أنْ تسلك به كل مكان في النادي قد يتواجد بها صديقاتها ، وتلك فطرةُ الخلق عند المرأة الطبيعية ، أنْ تسرع قدماها ناحية الرجل لتختبيء تحت جناحيه مهما كان ضئيل الشأن ومهما كانت هي .. يكفي أنْ يحمل اسم رجل .

والحقيقة أنَّ مالك لم يكن عاقلا تماما ، ولم يكن أيضا مجنونا تماما .. إنه شخصٌ مثقفٌ ثري بقلبٍ نقي ، تعرض لصدماتٍ كبيرة وكثيرة أحدثتْ خللا فيه ، وإنَّ أكبر مأساة يعيشها أنه كان أعقل الناس ، وكان أنقى الناس ، وهو الآن كذلك

حقا ، لكنه النسخة المجنونة ، ولا يجب أنْ نستغرب ، فمعظم البشر لهم وجهان ، الأصل الظاهر يكون عاقلا ، والثاني يكون مجنونا ، لكنه خَفِي يظهر ويغيب .

وقد يتساءل البعض : هل هناك شخصٌ مجنون وعاقل في نفس الوقت ، والجواب نعم هناك كثيرون ، بل إنَّ كثيرا مِن البشر يتدرجون في مراتب الجنون ، والغريب أنَّ هؤلاء أول مَن يوفون بالعهود ويتقنون الأعمال ، ويكفي أنَّ المجنون لا يكذب ولا يكره ولا يخون ، وكأن هذه الأنواع مِن الشرور قد غابت مع الجزء الذي غاب مِن العقل ليحل بدلا عنه بصيصٌ مِن الاستنارة والفراسة ، لذا يحدث تكرارا أن نسمع أكثر الكلام حكمة مِمَن يعتبرهم الناس مجانين ، أو مِن عقلاء غابوا وقتا عن عالم الناس في حالةٍ أشبه بالهذيان المقصود والهدوء الغريب فأبدعوا وخرجوا بأروع الأفكار والاختراعات .

لكن هذا ياسين الغاضب يقول لوعد صائحا أمام مالك بينما كانت تتأبط يده خارجين مِن شقة الرحاب :

- ما هذا الذي تفعلينه؟
- كما ترى
- أبي لو عرف ما تفعلينه مع هذا المجنون سيغضب جدا منكِ ومني
- أبوكَ في حكم الرجل الغريب بالنسبة لي
- لكنه لم يطلقكِ بعد
- وما شأنكَ بذلك؟
- إنه أبي وإنْ كنتُ بعيدا عنه

وبالطبع لم تستطع وعد أنْ تخبره بأنَّ سالم السعدي ليس أباه ، فتركته وانصرفتْ مع غضبه منها وغضبها منه ، لكنها أخفتْ غضبها ، وقد كانت خبيرة في إخفاء مثل هذه المشاعر إلى حين .

وخارج البيت انتظرتْ مِن مالك أنْ يُخْبِرها أنه غاضبٌ مِن كلام ياسين ، لكنه لم يتحدث عن ذلك ، فالمجنون في مثل حالة الدكتور مالك يجيب فقط في الغالب ، وسألته هي إنْ كان غاضبا أم لا ، فأشار برأسه أنْ لا ، فابتسمتْ وأخبرته أنها قررتْ أنْ تنقله لشقة بالحي السادس بمدينة نصر لتكون قريبة مِن مكان عملها في التسول ، فأشار برأسه بالرضا والقبول .

وكانت هذه الشقة هي شقة ياسين التي اشترتها ببعض المال الذي أعطاه لها أبوه المهندس معتصم شرف الدين نظير بذرته الحرام ، وبالطبع لم يكن ياسين يعلم عن تلك الشقة شيئا .. كانت شقة صغيرة في حي شعبي لكنها معقولة لأن تأوي مالك بجنونه حتى يعود عاقلا .

ذهبا سويا واشترتْ فرشها ، وبعد أن رتبتْ له كل شيء فيها أمسكتْ بيده وأخبرته أنها ستأتي له بالطعام والشراب كل يوم ، وعليه ألا يخرج منها إلا معها حتى لا يتعرض لأخطار الشوارع ، فأشار برأسه مبتسما ابتسامة عرفان ، لكنها عندما أخبرته أنها ستأخذه إلى طبيبٍ نفسي غضب غضبا شديدا ، وانتابته نوبة جنونية ، فأخذته مِن يده وأجلسته على أريكة ، وراحت تمسح على شعره ووجهه وتهمس له بصوت حنون ، وقد اقتربت منه كثيرا :

- أنا أعرف أنكَ لستَ مجنونا يا مالك .. أنتَ فقط تعرضتَ لصدمة كبيرة وتحتاج لبعض العلاج البسيط لتعود إلى حياتك الطبيعية وعملك .. أم هل نسيتَ أنكَ طبيب قلب؟

فأجاب مسرعا وهو يهزُّرأسه ساخرا :

- وكيف أنسى أني طبيب القلب الذي أبلغتْ عنه زوجته كذبا أنه يتحرَّش بمريضاته وممرضاته؟

- تلك السافلة الكلبة!! .. كيف تجرأتْ حنان على أنْ تفعل بكَ كل ذلك؟

- وأكثر مِن ذلك يا وعد .. لقد ملأت الدنيا بشائعات عني

فقالت وعد له برفقٍ وحنان :

- دَعْكَ مِن هذه الشيطانة .. ألا تريد العودة لأولادك وإخوتك؟

- إخوتي وأولادي تحالفوا معها ضدي .. أبلغوا عني أني أبدِّد ثروتهم على الفقراء

فأخذتْ وعد نفسا عميقا ثم قالت :

- إذن عُدْ إلى الفقراء يا مالك .. ما ذنبهم أنْ تستسلم وتمنع خيرك عنهم؟

- الفقراء الآن هم أول مَن يسخرون مِني .. إنهم يلقونني بالحجارة في الشوارع كلما شاهدوني

فابتسمتْ وعد ابتسامة حزينة واقتربتْ منه أكثر، ورفعتْ رأسه لها وهي تنظر في عينيه قائلة :

- إذن عُد لي يا مالك

فنظر لها طويلا مستغربا كلامها الأخير بينما كانت تنظر له بابتسامة ساحرة شغوفة به .. قالت :

- نعم لي .. أريدكَ أنْ تذهب للطبيب ليعالجكَ مِن أجلي

وظلَّ مالك الأمير ينظر لها دون كلام ، فوضعتْ رأسها على كتفه فرفع يده وطوقها ، فرفعتْ رأسها سريعا له سعيدة بذلك وعيناها لا تفارق عينيه ، ثم هوتْ على وجهه ورقبته تنثر قبلاتها الملتهبة الحارة وهو مستجيبٌ مستكينٌ راضٍ بكل ما تفعله ، فدخلا بذلك معا عالما سحريا جميلا ، وأحستْ معه بمشاعر لم تشعر بمثلها أبدا مِن قبل .

إنه العشقُ الذي جاء يطرقُ بابَ شيطانةٍ غجريةٍ تملك بالنهاية قلبا بشريا ، ولا أظن أنَّ هناك إنسانا عاش سنواتٍ طويلة أو قصيرة ثم رحل دون أنْ يَمَسَّ الحبُّ قلبَه .. لقد عشقتْ الإنسانةُ وعد الإنسانَ مالك بلا تلك الألقاب والأوصاف والصفات التي تظلُّ دائما حاجزا حديديا أحمقَ بين القلوب العاشقة .. لقد كان حبا صافيا نقيا مِن النوع الذي يدوم نقاؤه فلا تلوثه قاذورات البشر.

وصارت الغجرية وعد تتعجل أنْ تُنهي عملها كل يوم لتذهب بكل احتياجات مالك إليه ، ولتجلس معه فتتحدث كل أحاديث العشق التي عاشت عمرها دون أنْ يجري على لسانها كلمة منها ، ووصلتْ إلى درجة أنها لم تعدْ تستطيع أنْ تتركه ، فصارت تبيت الليل معه كثيرا في شقة السادس ، وعلى نفس السرير.

ولكن ما الأمر بالنسبة لمالك؟ إنه بلا شك ليس في حالته الطبيعية ، فهل لقلبِ مجنونٍ أنْ يخفقَ بالحب؟ .. الحقيقة نعم ، وهل ينسى أحد قيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية؟ .. إنَّ قصة حبه لها خالدة عبر العصور ، وهذا المجنون مالك الأمير قد خفق قلبه بحب وعد الغجرية ، الإنسانة كما عرفها ، تلك التي حفظته مِن خطر الشوارع وسقته وأطعمته وأسكنته بشقة يتمناها كثيرٌ مِن العقلاء ، وعالجتْ كل جراحه بيديها الحانيتين وبقلبها الشغوف به منذ زمن ، وبأشياء أخرى ، فكيف لا يحب تلك الإنسانة؟

لكن وعد الخادمة ، تلك التي عرفها تخدم في بيته ، ووعد التي تعمل في التسول كما رآها بعينيه ، ماذا كان رأيه فيهما؟ .. أما الخادمة فلم يزعجه ذلك إنْ كانت قد تابت عن مثل ما فعلته مع أخيه إياد ، وأما المتسولة فهذا ما كان دائما يلومها عليه ، فكانت تخبره بأنها يوما ما ليس ببعيد ستترك التسول بلا رجعة لتنقل نفسها وتنقله معها إلى حياتها التي خططتْ لها مِن البداية تخطيطا شيطانيا لتحقق حُلْم الثراء .

وهو بالطبع لم يعرف بعد وعد الشيطانة تلك ، إنه رجل مبادىء رغم أنه مجنون ، وإنَّ المجنون يظلُّ محتفظا بمبادئه معه خارجا في جولته مِن العقل إلى الجنون ، بل إنَّ ما جعل بعضا مِن العقلاء مجانين هي تلك المبادىء التي ظلوا يتمسكون بها حين فرَّط المفرطون ، والتي بسببها يبدو جنونهم باديا للناس .

قالت له وعد ذات ليلة قولا ليس بمستغرب :

- مالك أنا أحبُّك .. فهل أنتَ تحبني؟

ابتسم لها ثم أمسك بيدها قائلا بحب :

- وكيف لا أحبك يا وعد؟!
- وهل ستظل تحبني يا مالك؟
- وما الذي قد يمنع ذلك؟
- أنْ تبحث عنك حنان وترجعك إليها
- حنان شيطانة وأنتِ ملاك .. سأظل معكِ أنتِ

وابتسمتْ وعد وقالت في نفسها : (يا خوفي مِن أنْ تعرف ذات يومٍ حقيقتي!)

ثم انتبهتْ على قوله لها :

- سالم زوجك يا وعد .....
- ما له؟
- أنا وأنتِ نخونه .. وهذا شيء لا أحبه

فابتسمتْ وربتتْ على كتفه وهي تقول :

- لا تقلق بسبب ذلك .. سأرفع عليه قضية خُلْع وبعدها نتزوج ونعيش معا في الحلال
- أتمنى أنْ يتم الخلع بسرعة يا وعد
- مالك يا حبيبي .. ماذا ينقصكَ مني الآن؟
- أشعر بتأنيب الضمير.. أنا خائف مِن ربنا
- ألستَ تحبني؟
- بلى أحبكِ
- وأنا .. ألستُ أحبكَ؟
- بلى تحبينني
- الحب عقد زواجنا .. هذا يكفينا
- لا يا وعد .. نحن مسلمان في بلد مسلمة .. لسنا في بلاد الغرب
- اعتبر أننا في بلاد الغرب
- سالم زوجك مسكين مخدوع .. حرام علينا
- مالك يا حبيبي
- نعم
- طالما أنا وأنتَ معا فلا تحدثني عن زوجي سالم

- وعد .. يجب أنْ يطلقكِ سالم .. ويجب أنْ نتزوج وإلا .....

سألته مسرعة في اهتمام :

- وإلا ماذا يا مالك؟
- سأترك شقتكِ .. وسأتركك
- وهل أهون عليكَ؟
- نعم تهونين .. فهذا أهون مِن نار جهنم